الفصل الرابع

لكنَّ ذا الدهرَ يُعلى كل هلباجـة
و المجد للعرب يوم الأمن و الوجلِ
هُمُ الحماة و أعلى الناس منقبـة
يوم القِرا و القنا و الحادث الجللِ
سل المآثر تلقَ من آثارهـــــم
مَجْدًا ربا الأرض من سهل و من جبل
ديني و ديدني حُب العُرْبِ قاطبـة
و هُم هداتي في علمي و في عملي
و هُم حياتي و عند الحشر هُم أمَلي
و بهم أرتجى المختار يشفــع لي
عليه مِنِّي صلاة لا نفاذ لهـــــا
مع السلام و من للعرب يدعى ولي

مراسلات المسعدي

رسائل[1] المسعدي لا تُعَدُّ و لا تُحصَى ضاع منها الكثير، لم يُسبق لها و أن نُشِرَتْ كان يتبادلها مع أعلام عصره و أصدقائه من الأدباء و الحكام و الأعيان و منهم مَن يأتيه من خارج الجزائر خاصة القُطر التونسي الشقيق. و الرسائل المسعدية أغلبها أدبية، ذاع صيتها لما فيها من عيون الأدب و الحكمة و الشعر و فنون النثر. و قد اختلفت موضوعات الرسائل و اتجهت اتجاهات دينية و اجتماعية و أدبية و إخوانية و عامة و أخرى فيها إجابة عن طلب ...الخ. و استعمل المسعدي في مراسلاته فنونًا أدبية راقية رائعة يطغى عليها سحر البيان، تشبه إلى حد كبير رسائل بديع الزمان الهمذاني و الحريري و الجاحظ .

و تنقسم رسائل المسعدي إلى أربعة أنواع، تأتي في مقدمتها الرسائل الإخوانية و الأدبية و تعتبر من أجود وأرقى أنواع المراسلات لما احتوته من نثر و نظم. و هي عبارة عن رسائل شخصية مختلفة الأغراض تبادلها المسعدي مع عدد من أصدقائه و حتى مع أفراد عائلته و فيها من التهاني و الاعتذار والتعازي والشكر الكثير ورسائل المدح و الثناء. و تلك المتبادلة بين شيخ و تلميذه و شيخ وصديقه. وقد عرَّفها د. محمد رضوان الداية بقوله: " إنَّ الرسائل الإخوانية هي رسائل شخصية لإظهار اختلافها عن الرسائل السُلطانية أو الديوانية و هي رسائل يُعبِّر فيها الكاتب عن قضايا خاصة و أمور شخصيَّة أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل و الأصدقاء مِمَّن قرب مكانه أو بعد مزاره .."[2] كما إنَّ تلك الرسائل "

---

١ لم أتوسَّع في التعريف بالرسائل و تحقيقها، و إّما اكتفيت بإعطاء نبذة مختصرة فقط . لأنَّني أفردت لها كتابًا مُستقلًّا انتهيت من تصنيفه بعنوان (تخريج رسائل المسعدي) و سيلقى طريقه إلى النشر بإذن الله تعالى

٢ د. محمد رضوان الداية كتاب ' في الأدب الأندلسي ' ص ٢٢٧

عكست حال الظروف الاجتماعية ... و أدخلها مؤرخو الأدب في الرسائل الإخوانية رسائل متبادلة بين الأدباء فيما بينهم و بين غيرهم أيضًا.. "[1]

ونجد أبرز الرسائل الأدبية و أقواها تلك التي تبادلها المسعدي مع الطاهر بن العبيدي السوفي و أخيه أحمد العبيدي. أو مع الشيخ الديسي خاصة فيما يعرف بالمناظرات الأدبية و الشعرية و المقامات. ثم في المقام الثاني تأتي الرسائل ذات الطابع الديني التي تعالج القضايا الفقهية الشرعية مثل الفتاوى و رؤية هلالي رمضان و شوَّال أو التنبيه على مسألة شرعية أو رسالته مع أطفيش حول ميراث المُخنَّث. وفتاوى أخرى ترِده من عند أصدقائه أو من عند بعض السائلين ومنها رسائل تحمل أجوبة على تلك الفتاوى.

أمَّا الرسائل العامة فمثل رسالته مع كل من ابن باديس و البشير الإبراهيمي حول قضية التعليم أو التي تبادلها مع محمد بن بلقاسم بلحرش و الشيخ محمد العاصمي و عمر دهينة و آخرين.

كما إنَّ تلك المراسلات لم تكن بعيدة في تناولها لمختلف الأحداث و القضايا و ما عرفته و عايشه أثناء تلك الفترة حيث أرَّخَتْ للبعض خاصة و أنّه في عدد من الرسائل نجد أراء سياسية كالتي شهدها العالم الإسلامي مثل الانقلاب الذي قاده كمال أتاتورك ضد السلطان عبد الحميد و أهى على إثره الخلافة العثمانية. أو الصراع بين المذاهب كما وقع بين الأباضيين و أهل السُنّة من المالكية.

و قد كتبت الرسائل بخطوط جميلة و مختلفة و هو ما اشتهر عن المسعدي. و يؤرِّخ فيها بالأرقام الهندية كما يستعمل التاريخ الهجري و مَرَّة الميلادي و مَرَّة التاريخين معًا و تكتب التواريخ مَرَّة بالأرقام و مَرَّة بالحروف و مرَّات معًا. كما إنَّ رسالتين أو ثلاث كتب عليهم اسم موطنه مثل: " من حافظ ودكم عبد القادر بن إبراهيم و والديه بمسعد دايرة الجلفة أيالة

---

١ نفس المصدر

الجزائر " و هي ليست من عادته أن يذكرها في مراسلاته . و رسائل المسعدي و إن كانت معانيها واضحة ألا إنَّ ألفاضها صعبة و فيها من المقدمات الطويلة ما يصعب قراءتها و فهمها. و تمثل تلك التي تبادلها مع الشيخان الطاهر بن العبيدي وعبد الرحمن الديسي و هي لا تُعَدُّ و لا تُحصَى و كل رسالة بها تقديم في مدح المسعدي و الإطراء عليه و وصفه بأجمل الصفات في معاني رائقة قلّما نجدها في كتب الأدب و أخرى يكثر فيها المدح و الاطراء نحو الشيخان الديسي والعبيدي. كما إنَّ أغلبها يجمع بين النثر و الشعر. و الملاحظ أنَّه في كل رسالة يأتي ذِكر ورود الرسالة أو الكتاب أو المكتوب. و منها ما يذكره المسعدي : " هذا و إنَّ كتاب مولانا أدام الله بقاءه و عُمره، عطاءه وقع هنا موقع الإعجاب و نزل لدينا مترل الأحباب فقبلناه الفين و وضعناه على الراس و العين ". أو الطاهر العبيدي على سبيل المثال **بنصِّه:**

ورد الكتاب فراق صوب صوابه و خطوب اشواقي خطت بخطابه

و السعد اسفر والزمان مساعد فولجت روض الوصل من أعتابه

لَّما فككت ختامه ألفيته دُرًّا نفيسًا يوم حسر قرابه

لله درُّك يا نبيل العصر في رعي الذمام بصكّه و كتابه

أوقوله : " .. فإنَّه ورد لي الكتاب في بطن الكتاب و كلا الكتابين طالعت و لتلك المعاني الشاهقة بعون الله طلعت ". أو ما جاء في رسالة الشيخ أحمد بن العبيدي **كمايلي:**

"**و بَعْد:** فإنَّه وَرَدَ على حضرة شيخنا العلّامة كتابكم يحمل بنود سلامتكم أدامها الله عليكم و معه الكتاب الذي زيَّنه النحرير ذو الديانة المتينة سيدي محمد بن عبد الرحمن و أطلعني الأستاذ عليه فقلتُ راميًا مع مَن رَمَى والله ولي التوفيق".

و من أشهر الرسائل تلك التي تبادلها مع الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي . إذ لا تخلو من السجع و الصنعة كما ذكر د . ابن قينه " حيث يختار الكلمات ذات الجرس الموسيقي و الرنين القوي". و منها الرسالة التي بعثها المسعدي للديسي و المُتضمِّنه تقريض كتاب (توهين القول المتين و الغول المبين) . كما إنَّ هناك رسالة من الديسي إلى المسعدي بتاريخ

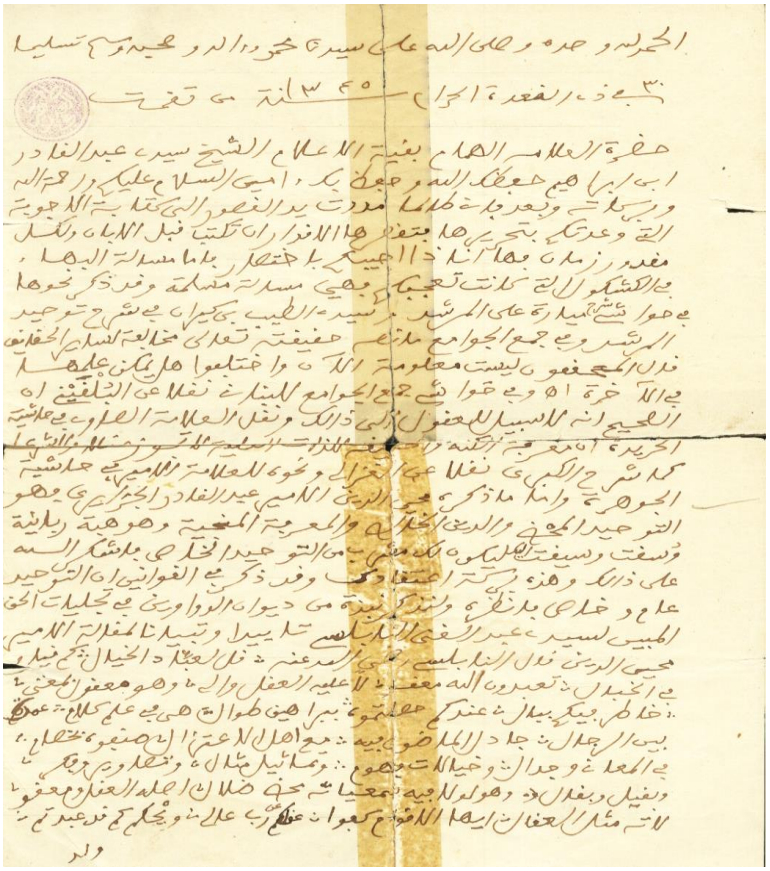

- وثيقة :خاص كتاب المسعدي حياته وآثاره -

الثامن عشر من شوال ١٣٣٣ جاء فيها "ولدَنا العزيز ذا التحقيق و التبريز سيدي عبد القادر بن إبراهيم الهمام، أمتع الله بمعارفكم و علومكم المسلمين والإسلام. السلام عليكم ورحمة الله تعالى و بركاته أمَّا بَعْد فإنَّنا بخير و داعون لكم به و راجون منكم مثله هذا ...". و منها كذلك رسالة الديسي عندما اطلع على تشطير المسعدي لقصيدة الحميدية التي نظمها الديسي بسبب إلغاء الخلافة الإسلامية. قال الديسي في رسالته:" مَن أحيا الله قلبه بنور المعارف و أذاقه حلاوة أسرار دقائق اللطائف العلامة حقًّا المُهذَّب تحقيقًا و صِدقًا سيدي عبد القادر بن إبراهيم لازلت باللطائف تهيم و أمتع الله بكم الإسلام ونفع بعلومكم الأنام و بَعْد إهداء سلام كلطف أخلاقكم و طيب أذواقكم فإنَّا بخير و داعون لكم بالخيرو قد وصلنا تشطيركم البديع المزري بأزهار الربيع الذي أشهد له من صميم الفؤاد بالفضل و أقول قيامًا بالقِسط ولو على النفس بأنَّه أرجح في الأصل على أنَّ تشطير القصيد أصعب من إنشائه لما يلزم له من التوطئة و مراعاة الألفة المناسبة في ابتنائه .."و كتب المسعدي رسالة أخرى و بعث بها للديسي جاء فيها: " بينا أمواج الأفكار تتقاذف بفؤادي. و أنا رهين هموم لم أجد من قادى و الزمان قد اكفهرَّ و قطب و أناخ بكلكله و أرعب أن طلع طلعي البريد ينفض مذ رويه و يلوح ببرديه و يضرب الأرض ركضًا برجليه و يشير إلى السماء بيديه و ينادي بمِلء شدقيه..." .

و منها كذلك رسالة الديسي للمسعدي:" فخر الواسطة و مَن هو في عقد أدبائها و فضلائها الواسطة، المُحِب الودود و المرموق المودود العلّامة سيدي عبد القادر بن إبراهيم منحت الفهم و التفهيم و التبجيل و التكريم .. " و كان جواب المسعدي :"الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله. الهمام المصقع الذي لايجارى في رهان و الإمام المفلق الذي لايلز في قران.علامة الزمان و خلاصة العرفان خاتمة المحققين الأعلام المدققين و النهاية في علو الشان.." .فجاء جواب الديسي :"..قِس البراعة و أفضل من أقرّ على أنامله اليراعى. بدر بني سعد و إن لم ينصفوه قبل و بعد إذ لو أنصفوه لتوَّجوه و استقاله أن أقول موَّلوه أو زوَّجوه.." .فردَّ عليها المسعدي برسالة جاء فيها: "... أفضل مَن أسلمت إليه العلوم

زمامها و أكمل مَن نشرت عليه الفهوم أعلامها .."ثم انقطعت المراسلات بين الشيخين ويؤكد المسعدي ذلك حيث يقول :"..ثم بعد سنة أنشا في ذلك مَقامَة سلك فيها غير مسلكه القديم فجاء بأبهى من الدُر النظيم "و هي مَقامَة تفضيل البادية بالأدلة البادية .

أمَّا رسائله مع الشيخ أحمد العبيدي فهي كثيرة، منها الرسالة المؤرَّخة في الثلاثين من ربيع الثاني ١٣٢٨. و نَصُّها :" ..الألمعي الأديب اللوذعي الأريب الفاضل الكامل الفريد الحلاحل الدراكة الأمجد الفهَّامة الأسعد من مثله عديم أو نادر الشيخ سيدي عبد القادر ..

ورد الكتاب فجدَّدَ الأفراحَ و أزاح عنِّي الحُزن و الأتراحَ

فتمايلت أعطافنا بقدومه كتمايل النشوان يسقي الراحَ

لَّما فككت ختامه ألفيتُه مِسْك الختام على الأحبَّةِ فاحَ

ألفاظه كالتبر عُلّق في نحو الغانيات فأفلقَ الإصباحَ

وأجابه المسعدي بما يلي: في ٢١ ماي ١٩١٥ " الأديب الأريب اللوذعي الألمعي النجيب العلّامة الأوحد الشيخ سيدي أحمد نجل العبيدي الأسعد جعل الله هلال محرك بدرًا و أبقاك لنا كهفًا و ذُخرًا بجاه مَن وطىء البساط بنعله عِزًّا و فخرًا و بَعْد: فقد وَرَدَ الجواب الكريم و الإحسان العميم فكان أبهى من الدُرِّ الذكيم و الروض الوسيم كيف لا و قد جادت به قريحة سحبان العصر و إنسان عين الدهر مُفجِّر الصخر بلا فخر..." .

وللمسعدي كذلك مراسلات مع عدد من العلماء و الأعيان و الوجهاء، منها رسائل متبادلة مع الأديب يحي بن السعيد بن عبد السلام تلميذ الديسي و حاكم قبيلة زنينة و ما لاحظناه أنَّ أغلب الرسائل المبعوثة للمسعدي من طرف الشيخ الديسي يؤكّد فيها هذا الأخير على ضرورة إرسال نسخة منها إلى يحي بن السعيد بل و يضيف الديسي ".. فإن وصلتكَ – أي الرسالة – فيتعيَّن عليك إرسالها إلى ولدنا و أخيكم القائد

سي يحي فإنَّ قلبه بالآداب يحيا و لتشرح له ما غمض منها...".و للمسعدي كذلك رسائل مع الشيخ محمد العاصمي (١٨٨٨ – ١٩٥١) منها ما كتبه هذا الأخير للمسعدي : "فضيلة العلّامة و الأخ الكريم الشيخ سيدي عبد القادر بن إبراهيم دام مُحِبًّا ...فقد اتصلتُ برسالتك الجامعة المانعة بما وُهبتم من قلم سيَّال و فِكْرٍ فيَّاض و معلومات طافحة بكل مختار من القول لا فُضَّ فوك على أن ما لمست أثره في هذه الرسالة أكد ما أفضتم فيه شفاهيًّا و موقفكم حسب المفاهمة الشفاهية و هذه الرسالة موقف صريح فحواه تحدِّيكم مَن يرى خلافه ...". و رسائل مع عمر دهينة المُدرِّس بمليانة منها رسالة جاء فيها :"..الأخ الكريم السيد عبد القادر بن إبراهيم سلامًا و تحيَّة و بَعْد: بلغني اليوم مكتوبكم فكان سروري عظيمًا لما حمل لي من أخباركم المُرْضية...".

ومن رسائله كذلك تلك التي بعثها إلى القائمين على النادي الإسلامي بعد استقالته من التعليم في النادي في ١٤ اوت ١٩٣٨ تحت عنوان (نداء و إعلان إلى جماعة الإصلاح والإحسان) جاء فيها :"...أيُّها الإخوة الكرام أحيِّيكم تحيَّة مفارق بكل أسف و امتعاض، إنَّه لا يعزب عن علمكم ما وصلتْ إليه الحالة من التحرُّج من جراء الإرهاقات و الخلافات الناشئة عن فساد النيَّات و اختلاف المشارب و تباين المقاصد و تضارب الأغراض السيئة وضعف الإيمان التي آدَّت إلى تشتيت الكلمة و انحلال الرابطة و التباغض و التدابر طمع في الأمر.....إخواني تسمَّيتُم مصلحين .. فهلّا بدأتم بصلاح أنفسكم ثم بصلاح ذات بينكم فإن لم تفعلوا ولن تفعلو فلن يصلح من أمركم شيء دهر الداهرين و أبَد ..أخرِجوا من بينكم كل حلّاف مهين همَّاز مشَّاء بنميم منَّاع للخير عُتلٍّ بعد ذلك زنيم. اطردوا كل مَن فيه شائبة خيانة من موالاة .." .

يبقى أن نقف في الأخير أمام تلك الرسالة التي كتبها أعيان الأغواط للمسعدي. و هي جديرة بالقراءة والعناية و التمحيص خاصة وإنَّها تعبير عن الانقلاب الذي وقع في حياة المسعدي .ورغم أنَّه لقِّبَ بالعقبي لعداوته الشديدة لرجال البِدَع والطرق الذين انحرفوا بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف مِمَّا جعلهم يقفون له بالمرصاد و يقيمون ضِدَّهُ حِلفًا مع الإدارة

الاستعمارية. إلا انَّنا نستغرب منه و هو يقوم بكتابة التوسُّل بالشيخين الجيلي و الشاذلي بعد المراسلة التي بعثها علماء الأغواط إلى المسعدي. و التي جاء فيها : " .. فإنَّ العارف بالله تعالى سيدي الحاج البشير بن الحاج رحمه الله كان في قيد حياته أنشدنا بديهيًّا بمحل سكناه بيتين مُتوسِّلًا بهما إلى الله تعالى و أوصانا وقتئذٍ بقراءتهما و المداومة على التوسل بهما

وقت اجتماع الميعاد القادري، و البيتان هما:

بالجيلي و الشاذلي رضي الله عنهما * فرِّجْ كروبي يا ولي حتى أفوز بهما

و كنت سألتُه عن قائلهما فقال إلى العبد الفقير و على هذا فالرجاء من كمالكم و حُسْن أخلاقكم تذييلها بأبيات أُخَر بما يفتح الله عليكم من إنشادكم الرائق و لكم الفضل... " .

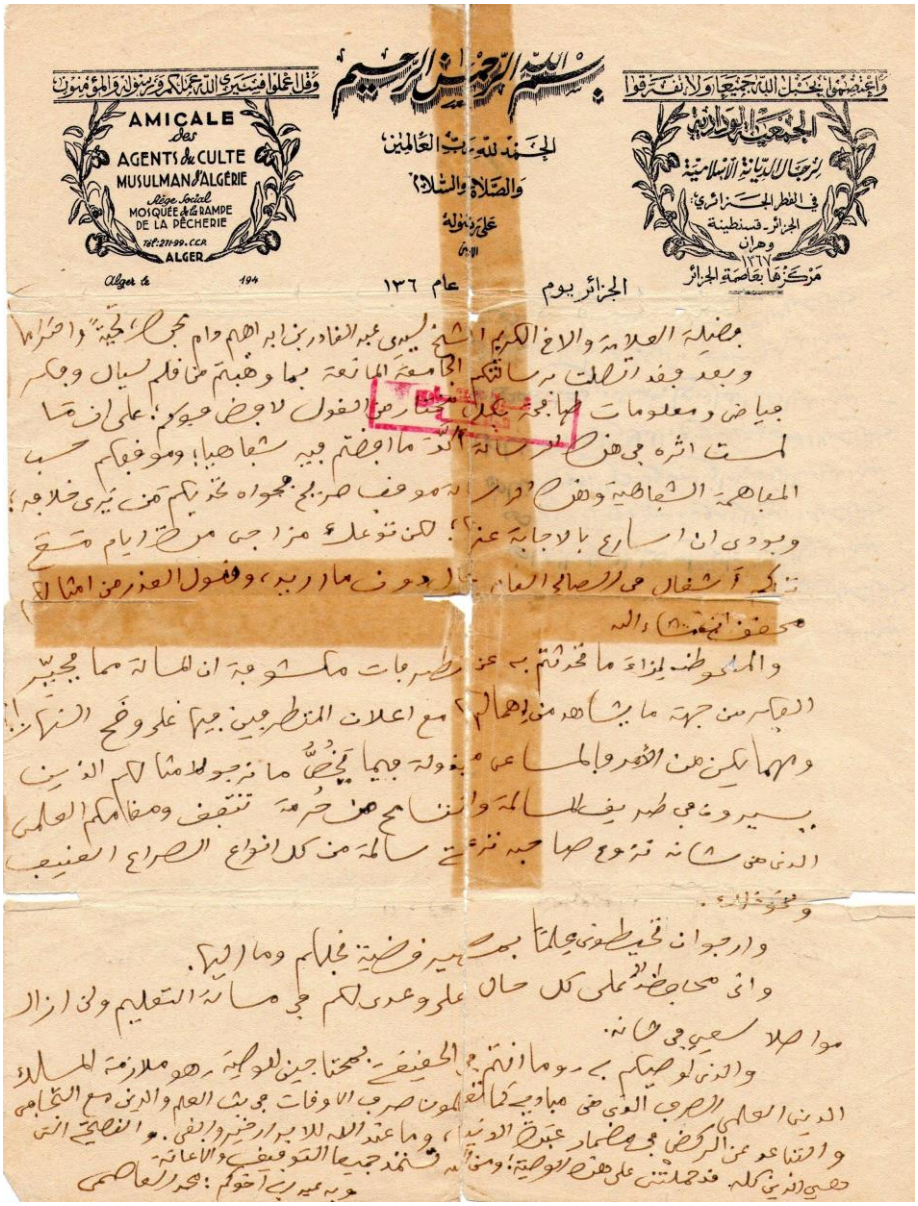

- وثيقة :خاص كتاب المسعدي حياته و آثاره -

فكان أن رَدَّ المسعدي على ظهر الورقة تضمن التذييل[1] و أرسله في حينه إلى جماعة الأغواط وبقي متواترًا إلى اليوم يردِّدُونه فيما يعرف بالحضرة و مقامات الصالحين و مجالس الذكر والدعاء و اجتماع الإخوان.

ومِمَّا يجدر الإشارة إليه أنَّ عصر المسعدي كان العصر الذهبي في تبادل الرسائل الأدبية و الإخوانية. و بالرغم من شُحِّ المعلومات و المصادر ألا إنَّ من الكتّاب مَن ترك الكثير من الرسائل الأدبية التي تعدَّدتْ أغراضها خاصَّةً و أنَّ عالِمًا كالمسعدي نجده برز في أدب الرسائل التي تبادلها مع أعلام عصره. كما إنَّ الديسي و الطاهر العبيدي و ابن باديس اشتهروا كذلك بالرسائل الأدبية و لا أدَلَّ على ذلك من غزارة تلك الرسائل التي ربطت بين مَن سبق ذِكْره و قد ذكر المؤرِّخ الكبير الدكتور أبو القاسم سعد الله الكثير منها خاصَّة و أنَّنا نجد في كتابه (تجارب في الأدب و الرحلة) رسائل مجهولة من تلك الفترة التي عاش فيها المسعدي من بينها الرسالة التي تبادلها كل من ابن باديس و الطاهر بن العبيدي و اعتبرها الباحث " مراسلة غريبة بين ابن باديس و أحد علماء سوف "[2]

أمَّا رسائله مع الشيخ الطاهر بن العبيدي فحدِّثْ و لا حَرَج خصَّصنا لها كتابًا مُستقلًّا مُضافًا إليها رسائلهما مع الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي. و جعلنا نموذجًا منها في الملحق الخاص بالرسائل على سبيل الاطلاع في كتابنا هذا. كما إنَّ هناك العديد من المراسلات بين المسعدي و تلميذه ابن عياش بن الطيب خاصة تلك التي بعثها المسعدي بعد وفاة ولد ابن عياش بن الطيب في نوفمبر ١٩٥٤ لمشاركته في المصاب و لتعزيته أو للاطمئنان عليه أو للسؤال عن أحوال العائلة و هي مشهورة. و منها كذلك هاته الرسالة التي بعثها المسعدي لابن عياش بعدما أصيب الأخير بمرض: " باسمك اللهُمَّ الطيف الخبير وبنبيك

---

١ انظر التذييل في النماذج المختارة من تراث المسعدي

٢ الدكتور أبو القاسم سعد الله : كتاب " تجارب في الأدب و الرحلة " صفحة ٩٧

الرءوف الرحيم الذي أنزلت عليه و نُنزِّل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين أهدي أتمَّ السلام و التحيَّة على الدوام و شفاء الأسقام وسلامٌ قولًا من رَبٍّ رحيم إلى ولدنا الصادق و ودودنا الموامق الموافق الحميم وقاه الله كل حميم سمير الروح و الفؤاد وراحتي من كل تعب و نكاد سيدي ابن عياش بن الطيب لازال العياش الطيب بجاه الطيب المطيب صلى الله عليه و سلَّمَ تسليمًا ".

ومن أجْل إلقاء نظرة على تلك الرسائل هناك نماذج منها في الفصل الخامس الذي يحوي المختار من آثار المسعدي. و اكتفيت بهذا الاختصار من مراسلات المسعدي لأنَّ أغلبية الموضوع تضمَّنَهُ كتابنا المخطوط[1] حول مراسلات المسعدي .

١ كتاب : تخريج رسائل المسعدي(مخطوط) / تأليف وجمع وتحقيق وتعليق حفناوي بن عامر غول الحسني